وقفة مع الذات
لغة خطابنا العلمي: «نحن» و «الآخر»

عندما قررنا في أكاديمية أوكسفورد للدراسات العليا البدء بتدريس مادة «لغة الخطاب في البحث العلمي» لطلاب الماجستير والدكتوراه على السواء، اجتمعت مع عميد الأكاديمية للشؤون العلمية البروفيسور «هيرمان بل» الذي تقرر أن يشاركني في تدريس هذا الموضوع، وسألته عن المصادر التي سيعتمد عليها في تدريس موضوع كهذا لم يسبق - فيما أعلم - أن خصته جامعة أو معهدٌ بالتدريس مستقلاً عن مادة مناهج البحث ولكنه فاجأني حين قدم لي قائمة بأسماء أكثر من عشرين كتاباً بالإنجليزية كلها بعنوان «لغة البحث العلمي» أو قريباً من هذا العنوان.

بقلم: د. أحمد بسام ساعي
إنكلترا

كنت سعيداً بوجود هذا العدد الضخم من المراجع للمادة لأنها ستكون خير عون لنا على ارتياد هذه الطريق البكر في تدريس لغة الخطاب، بقدر ما كنت متألماً لأن كتاباً واحداً - فيما أعلم - لم يوضع حتى الآن في هذا الموضوع باللغة العربية.

إنه ولاشك فراغٌ خطيرٌ في صندوق عُدة طلابنا الذين يمارسون كتابة البحث العلمي، سواء لنيل الدرجة الجامعية الأولى، أو ممن يعملون للتحضير لدرجة في الدراسات العليا. فراغٌ شعرت بضخامته، وأنا أعايش مشكلات طلابنا في أكاديمية أوكسفورد، وكثيرٌ منهم ينتمي إلى بلدان عربية وإسلامية، وكثيرٌ من هؤلاء يخلو، أو يكاد، من أبسط الخلفيات عن شروط ومواصفات اللغة العالمية للبحث العلمي.

ولكن الأدهى من هذا أن

* رئيس أكاديمية أوكسفورد للدراسات العليا (سابقاً)

عدداً كبيراً من هؤلاء الطلبة بدوا مصرين، وهم الآن في أكسفورد، على كتابة البحث بلغتهم المحلية، ويرون مخالفتها ضرباً من العبث أو الخروج على قواعد الكتابة التي شبوا، وربما شابوا، عليها. إن كثيراً منهم تجاوز الثلاثين أو الأربعين، ومارس الكتابة والتأليف لزمن طويل، ومع هذا فبينه وبين اللغة العالمية للبحث العلمي هوة سحيقة يصعب ردمها أو ترميمها.

لقد قطع البحث الجامعي في الغرب أشواطاً بعيدة في إنضاج لغته ووضعها على مسارها الصحيح في خط الموضوعية، حتى بدت الفجوة بينه وبين نظيره العربي أوسع من أن تجبر، فاللغة السائدة في معظم بحوثنا الجامعية ما تزال منطوية على تقاليدها ومحليتها، وغير قادرة على تجاوز حدود وطنها لإسماع صوتها للعالم.

هذا لا يعني من جهة أخرى، أن ما ينطبق على الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، أو أي لغة أخرى يمكن تطبيقه على العربية. فاختلاف طبيعة اللغة، واختلاف ثقافة أهلها وفلسفتهم وعقائدهم وبيئتهم الزمانية والمكانية لابد أن ينعكس على لغة الخطاب العلمي عندهم مهما توخينا الحذر في ذلك، فلكل لغة طبيعتها وخصائصها المتميزة وطرائقها في التعبير كما يقرر جون سويلز في مقدمة كتابه (تحليل الأجناس

جون سويلز

الأدبية: الإنجليزية في المحيط العلمي والبحثي)[1].

كما أن هذا لا يعني عدم وجود ثغرات خطيرة في ميكانيكية البحث عند الأكاديميين في الجامعات الغربية، ولا سيما حين يتعلق البحث بالحضارة العربية أو الإسلامية بشكل عام، والنماذج أمامنا كثيرة في لجوء بعض المشرفين الغربيين إلى ممارسة ضغوط مجحفة على طلابهم، في مجال الدراسات العربية والإسلامية، لتحريف بعض الحقائق التي تخالف فلسفة الغرب وعقائده السياسية والاقتصادية والثقافية.

ومن خلال تجربتي مع طلبة دراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي في أوكسفورد أميل الآن إلى الاعتقاد بأن العامل الأساسي في تعثر لغة الخطاب في البحث العلمي العربي هو انطلاق الباحثين من زاوية واحدة ينظرون منها إلى العالم، هي الزاوية الإقليمية أو المحلية العربية أو الإسلامية، بغض النظر عن القارئ المحتمل لما يكتبون.

هذه النزعة «النحْنُويّة» - قياساً إلى «أنانية» - تسيطر على أقلامنا بشكل سحري نكاد نظن معه أن العالم كله عربي أو مسلم، فنحن، من هذه الزاوية المهيمنة، لا نرى إلا وجوهنا، ومن ثم لا نخاطب إلا أنفسنا، وننسى أننا نكتب بحثاً من المفترض أن يكون «علمياً» أو «عالمياً» أي للعالم أجمع وليس لجمهور واحد أو بضعة أقطار عربية أو إسلامية.

وتسيطر هذه النزعة، بوجوهها المختلفة، على حياتنا، وتتخلل جوانب تفكيرنا الأدبي والاجتماعي والسياسي والديني فتتخذ في الواقع مظاهر خارجية شتى ولكن الجوهر يبقى واحداً: النحنُويّة.

وفي أوائل السبعينيات ظهر للمهندس المصري الراحل عبدالرزاق نوفل كتاب «الإعجاز العددي في القرآن الكريم» وقد كشف فيه لأول مرة عن ظاهرة الثنائية اللفظية العجيبة في القرآن الكريم، وذلك في عملية إحصائية استغرقت ثلاثة أجزاء صغيرة، وأثبت فيها أن كثيراً من ألفاظ القرآن تتساوى في العدد مع أضدادها فيه، فعدد ألفاظ الليل مثلاً بعدد ألفاظ النهار، وعدد ألفاظ الشياطين بعدد ألفاظ الملائكة، وهكذا.. والأغرب من هذا وجود حقائق عددية كانت مفاجأة

لنا جميعاً منها أن اللفظ (شهر) يرد ١٢ مرة في القرآن، واللفظ (يوم) يرد ٣٦٥ مرة، ومثل هذا كثير، مما يؤكد، ويوضح، معنى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

لقد كانت ردة فعل بعض علمائنا على ظهور الكتاب هجوماً عنيفاً على المؤلف لأنه «تجرأ» وألف في موضوع «لا يهم أحداً» كما قالوا «فنحن لا نحتاج إلى من يثبت لنا إعجاز القرآن في الأرقام أو غيرها، لأننا مؤمنون ومقتنعون بإعجازه من غير كل هذه الأرقام، وهذه المحاولات إن دلت على شيء فعلى ضعف إيمان من يأتي بها أو يحاولها؟»!!

هذا الموقف يلخص، وربما يحسم، تلك «النحنوية» التي أتحدث عنها، فما دمنا مؤمنين ومسلمين، وما دمنا قد ضمنا الجنة لأنفسنا، فماذا يهمنا من أمر الآخرين، اقتنعوا بإعجاز القرآن الكريم أم لم يقتنعوا، المهم أننا مسلمون وكفى، وليذهب الآخرون إلى الجحيم..

إن عنصر «النحن» في ذواتنا يغطي غالباً «الموضوع» فيها، فننظر إلى كل شيء حولنا من

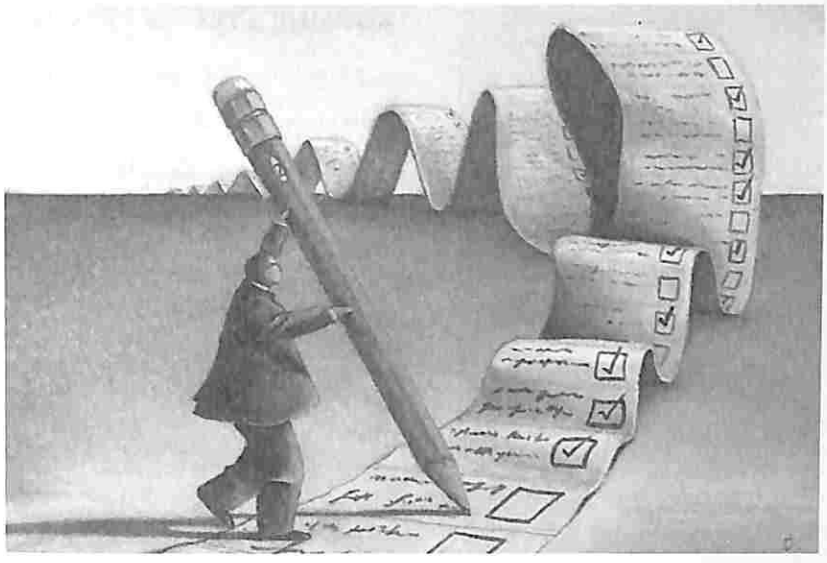

خلال «الذات» وليس من خلال «الموضوع». وهكذا تفقد أحكامنا استقلاليتها وعدالتها وشمولها، ومن ثم مصداقيتها فتسقط ضعيفة مهيضة الجناح عند أعتاب الآخرين.

ورسوخ هذه «النحنوية» في شعورنا الداخلي ينعكس على كثير من أحكامنا وقراراتنا وتصرفاتنا، وكذلك على لغة خطابنا، فيسودها الإنشائية والانفعال والخطابية والمبالغات والتعميم والصوت المرتفع ورفض الآخر والتسرع في إصدار الأحكام وعدم التوثيق، وهي جميعاً خصائص نموذجية للخروج بقطار الحقيقة والموضوعية عن خطه، وهما أبرز وأشرف ما يسعى البحث العلمي إلى تحقيقه:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن كيس فطن حذر وقاف مثبت لا يعجل..»(رواه الديلمي).

حتى أولئك الباحثون المحترمون، خارج سلك البحث الجامعي، الذين عملوا في مجال التأليف لعقود عديدة من السنين، لا يسلم كثير منهم من السقوط في الشبكة العنكبوتية القاتلة لـ«النحن» فلا يقرؤون أنفسهم بعيون الآخرين ليحكموا على كتاباتهم قبل أن يحكم عليها أولئك القراء، وهم يرونهم فريسة للخطابية والإنشائية والانفعال والصوت المرتفع، وهي العدو الألد للباحث العلمي في الموضوعات الإنسانية.

وأمامي الآن، من مكتبتي الخاصة خمسة كتب لم أتأن كثيراً في اختيارها فمكتبتنا العربية تحفل بهذه النماذج، وهي تحمل العناوين التالية:

١ - لا إلحاد بعد اليوم: حول رموز القرآن الكريم.

٢ - الإسلام هو الحل.

٣ - المستشرقون والعملاء الجدد: دراسات عن الاستشراق في الدول الإسلامية اليوم.
٤ - هكذا كانوا يوم كنا.
٥ - الكتاب والقرآن.

الكتاب الأول يتألف من عنوانين: كبير: لا إلحاد بعد اليوم، وصغير: حول رموز القرآن الكريم، أما الأول فأشبه بهتاف يردده أحد الشباب في مظاهرة ضد الإلحاد فيردد وراءه الآخرون بحماسة لا تقل عن حماسته: «لا إلحاد بعد اليوم». إنه أجدر بأن يكون شعاراً في احتفال شعبي أو مظاهرة في الشارع من أن يكون عنواناً لكتاب علمي يتحدث عن رموز القرآن وعن دلالتها الإعجازية على وجود الله ووحدانيته. لقد كان أولى بالمؤلف أن يكتفي بالعنوان الصغير (حول رموز القرآن الكريم) أو أن يأتي بعنوان آخر أكثر موضوعية لو أراد أن يحتفظ لكتابه بأبسط شروط المظهر العلمي.

أما الكتاب الثاني فقد كان القرار عند المؤلف جاهزاً وواضحاً منذ البداية: أعلم أيها القارئ أن: «الإسلام هو الحل». وسأحاول في هذا الكتاب أن أبرهن لك على ما أقول. وهكذا طرح المؤلف أمامنا نتيجة البحث قبل أن يبدأ بالعمل، وبدلاً من أن يكون القرار هو الذي يأتي نتيجة للبحث سيأتي بحثه- على العكس- نتيجة لإيمانه بصحة هذا القرار المسبق، وإذن فلم يتعب القارئ ويقرأ الكتاب ما دام قرار المحكمة قد صدر قبل أن يصل الموضوع إلى قاعة المحكمة؟!

والكتاب الثالث يحمل، مرة أخرى عنوانين: كبيراً: (المستشرقون والعملاء الجدد) وصغيراً: (دراسات الاستشراق في الدول الإسلامية اليوم). أما الكبير فيحمل بذور موته في رحمه. فاللفظ (عملاء) الذي أطلقه المؤلف فيه على تلك الطبقة - الظل من المستشرقين، أو لنقل: المتغربين من المسلمين الذين يقومون بدور لا يقل خطورة وأذى عن دور المستشرقين، هذا اللفظ لخص موقف المؤلف من هؤلاء منذ البداية، فالحكم قد صدر بحقهم، ثم بعد ذلك يمكن أن نناقش قضيتهم، على ألا تؤدي هذه المناقشة إلى تغيير الحكم الصادر بحقهم.

ولو أن المؤلف اكتفى بالعنوان ذي الأحرف الصغيرة: دراسات عن الاستشراق في الدول الإسلامية اليوم، لحقق منذ البداية شروط القاضي العادل، إذا كان الباحث العلمي حقاً بمثابة قاض يفصل بعدالة في القضايا التي بين يديه.

أما العنوان الرابع (هكذا كانوا يوم كنا) فتظهر (نحن) فيه بشكل جلي وسافر: إن المؤلف يطلقهاشتيمة منذ البداية بحق أولئك الذين «كانوا» يوماً في الدرك الأسفل من الحضارة، حين «كنا» نقود العالم بأخلاقيتنا وعلومنا وتفوقنا. حتى في شروط الخطبة، وما أبعد طبيعة الخطبة عن طبيعة البحث العلمي، لا تقبل هذه الإهانة للآخر، ولا الاعتزاز بالنفس أو الـ(نحن) أمام الآخر.

فإذا ما توغلنا داخل آخر كتاب من هذه الكتب «النماذج» (الكتاب والقرآن) طالعتنا فيه الأحكام القاطعة والجزم بما لم يثبت، ولا يمكن أن يثبت، لأن الموضوع ببساطة، ليس في حقل الرياضيات أو الفيزياء أو الهندسة أو الطب، وإنما في حقل محض إنساني بل غيبي، وغاية المؤلف منه هي التفريق بين معنى (الكتاب) ومعنى (القرآن) ومن ثم تجزئة القرآن الكريم، وبشكل خطير، إلى جزأين: مفروض على الناس، وغير مفروض، ويكفي لتوضيح هذه النزعة القطعية الغريبة فيه الوقوف عند المقتطفات التالية:

- «وإذا فرزنا مجموعة الآيات المحكمات على حدة، فما تبقى من آيات القرآن بعد ذلك هي كتابان أيضاً، وهما: الكتاب المتشابه، وكتاب آخر لا محكم ولا متشابه، وهذا الكتاب الآخر يُستنتج من قوله تعالى: ﴿وأخر متشابهات﴾ حيث لم يقل: والآخر متشابهات، فهذا يعني أن الآيات غير المحكمات فيها متشابهات وفيها آيات من نوع ثالث لا محكم ولا متشابه، وقد أعطى لهذه الآيات مصطلحاً خاصاً بها في سورة يونس، وهو (تفصيل الكتاب).

- فالكتاب المتشابه هو كل آيات الكتاب ما عدا آيات الأحكام، الرسالة، وما عدا آيات تفصيل الكتاب. وهذا الكتاب المتشابه هو مجموعة الحقائق التي أعطاها الله إلى النبي ﷺ والتي كانت في معظمها غيبيات أي غائبة عن الوعي الإنساني عند نزول الكتاب والتي تشكل نبوة محمد ﷺ .. فإذا أخذنا الكتاب المتشابه، أي آيات المصحف ماعدا الأحكام وتفصيل الكتاب، نرى أنها تتألف من كتابين رئيسيين وردا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾(الحجر): الكتاب الأول: سبعاً من المثاني. الكتاب الثاني: القرآن العظيم.

- نلاحظ أنه عندما ذكر الكتاب قال ﴿هدى للمتقين﴾ لأن في الكتاب أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق، أي فيه التقوى بالإضافة إلى القرآن. وعندما ذكر القرآن قال: ﴿هدى للناس﴾ ولفظة الناس تشمل المتقين وغير المتقين. فالمتقون من الناس، ولكن ليس كل الناس من المتقين وهذا وحده يوجب أن نميز بين الكتاب والقرآن.

- فأول ما جاء لفظ «الفرقان» لموسى عليه السلام وجاء معه الكتاب، أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة وجاء الكتاب على حدة، فَفُرِّقا عن بعضهما. وهذا الفرقان قال عنه في سورة آل عمران[٢]. إن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ، ثم إن الفرقان الذي أنزل على موسى هو نفسه الذي أنزل على النبي ﷺ في رمضان ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة). وبما أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن يستنتج أن الفرقان غير القرآن، وهو جزء من أم الكتاب، الرسالة، وأُنزل ونُزِّل في رمضان. وهذا الجزء أول ما أنزل إلى موسى عليه السلام..».

مجموعة من القرارات النهائية والأحكام القاطعة والاستنتاجات السريعة المبنية على احتمالات تلو الاحتمالات، ثم يأبى المؤلف أن يسميها باسمها «احتمالات» فيعطيها صفة القطعية والمسلمات، ويبني على هذه المسلَّمات «مسلَّمات» أخرى هي أيضاً لا تعدو مجرد احتمالات، أو لا احتمال فيها على الإطلاق، وهذا شأنه في سائر الكتاب[٣].

وهكذا تضيع الحقائق في كثير من أصواتنا وبحوثنا بين خِضمّ من «اليقينيات» المبنية على خِضمّ من «الاحتمالات» الرملية التي لا تقف طويلاً أمام أول موجة تمسها من النقد العلمي الحصيف.

والغريب أن معظم باحثينا العرب والمسلمين لم يستفيدوا من المنهجية العالية التي التزم بها أسلافهم من المؤلفين والباحثين في مختلف العلوم، ولاسيما علوم الحديث والفقه واللغة والتاريخ، وابتعدوا عن المنهج النبوي، أو لنقل: الإسلامي، في البحث وقد سن صاحبه ﷺ لمن يسلكه تحري الصدق، وتوثيق الخبر قبل نشره وإذاعته:

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس مطية الرجل: زعموا» (رواه أحمد).

- عن حفص بن عاصم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» (رواه مسلم).

ولم يستفيدوا من المنهج الإسلامي في دعوته إلى تجنب التعميم وألا يؤخذ المجموع بالفرد والعام وبالخاص:

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها» (رواه ابن ماجة والبيهقي).

وكذلك دعوته إلى اعتماد الاستثناء منهجاً لنا في كل أحاديثنا وأحكامنا:

- «إن من تمام إيمان العبد أن يستثني في كل حديثه» (رواه الطبراني).

الحق أن خير نموذج رائد لهذا الجانب الموضوعي هو لغة الخطاب في القرآن الكريم ويظهر هذا واضحاً في عشرات من المواضيع، منها على

سبيل المثال لا الحصر، هذه الآيات وقد أشرنا لموضع الشاهد في كل منها بخط تحته:

- ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ...﴾ (٢١٩) (البقرة).

- ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ...﴾ (٦٩) (آل عمران).

- ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ...﴾ (٧٥) (آل عمران).

- ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب..﴾ (٧٨) (آل عمران).

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (١٠٠) (آل عمران).

- ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ...﴾ (٤٦) (النساء).

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ (٥٩) (المائدة).

- ﴿...وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا...﴾ (٦٤) (المائدة).

- ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ (٦٦) (المائدة).

- ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ (١٤) (المائدة).

- ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ (١١٦) (الأعراف).

- ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (١٥٩) (الأعراف).

- ﴿وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ...﴾ (١٦٨) (الأعراف).

- ﴿أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ (٧٠) (المؤمنون).

- ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ (١٥) (النمل).

- ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ...﴾ (٣٤) (التوبة).

- ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ (١١٣) (الصافات).

- ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد

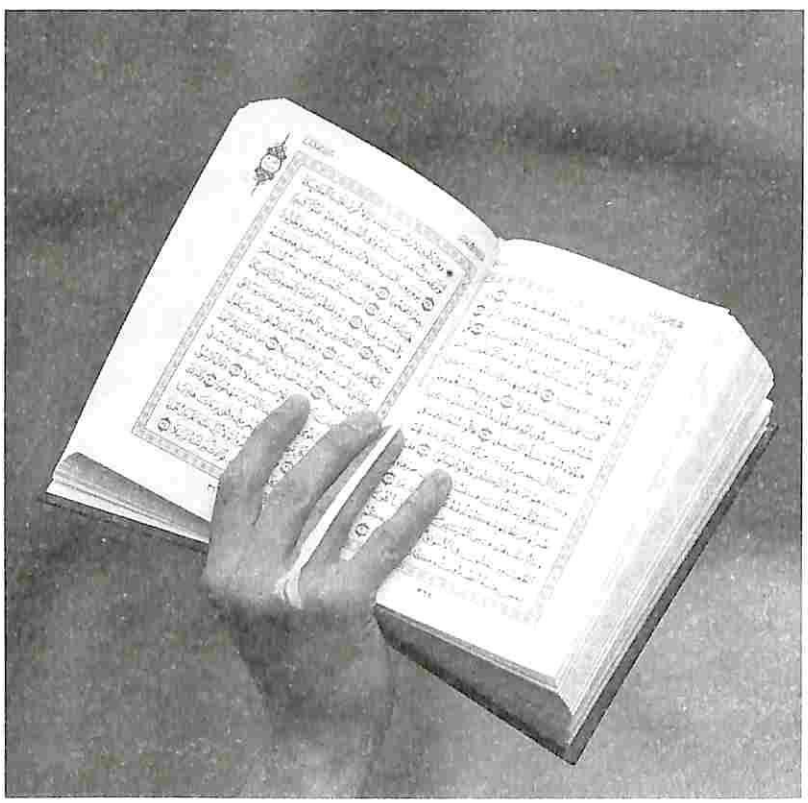

لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ (الزمر).

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ (الزخرف).

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ (الحجرات).

- ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ... ﴿٧﴾ (الحجرات).

وعلى العكس تماماً، ترزح الحقائق في كثير من بحوثنا، ومنها البحث الجامعي أيضاً، تحت جبال من التعميم المخيف، فلا يوجد استثناءات أو حالات خاصة، ولا موضع للاحتمال أو الخطأ، وهو أمر بدأنا نشعر بأهميته وخطورته عندما هبت عاصفة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر فحملت عدوى هذا المرض معها باتجاه الغرب، وقد غدا، عند بعض قادته على الأقل أشد تعميماً من الشرق وهو يتهم أكثر من بليون مسلم بالإرهاب من أجل بضعة متطرفين خرجوا عن طورهم الإنساني لأسباب لم يعطها الغرب بعد حقها الموضوعي من الدراسة والتأمل والبحث.

ومع اجتماع هذه العلل والأمراض في جسد بحوثنا وكتاباتنا، فقدت هذه البحوث مصداقيتها لدى الآخر، فلم تعد المؤلفات العربية عنده ذات قيمة علمية - على عكس موقفه من مؤلفاتنا القديمة التي ما تزال تحتفظ لدى الغرب بمصداقية عالية - وهذا يفسر ندرة البحوث الجامعية العربية التي تُرجمت إلى اللغات الأوروبية، وقد زهد الغرب بها وبمصداقيتها.

ولقد انعكست هذه الحقيقة على موقفنا نحن العرب من بحوثنا التي تُكتب بالعربية، حتى إن كتبت بإشراف غربي ومُنحت درجات جامعية غربية، وهذا يفسر رفض معظم الجامعات العربية لطلابها المبتعثين للدراسة في الغرب أن يكتبوا بحوثهم باللغة العربية، حتى إن كانت هذه البحوث في حقل آداب اللغة العربية وعلومها من نحو أو صرف أو بلاغة، وكأن العربية قد أضحت وعاء للضعف والفكر غير العلمي، وأداة للخطاب العاطفي والإنشائي والمبالغات والبعد عن الموضوعية والتوثيق.

ومن العدل أن نعترف بأن العرب مجبولون بطبيعتهم كمعظم الشرقيين، على لغة المبالغة والخطابية والإغراق في العواطف وارتفاع الصوت والتعميم والقطع بالأحكام، خلافاً لمعظم الأمم الغربية، ولابد أن نضع هذا في حسابنا عندما نحاسبهم أو نحاسب اللغة العربية على ذلك.

ولكن إلى أي حد يرخص للعربي «بممارسة عروبته» في لغة البحث، في عصر تقاربت فيه الأمم واللغات والثقافات والمسافات، ولم يبق إلا مساحة بسيطة للتمايز الثقافي بين هذه الأمم؟

على أن الخطر الأكبر في لغة بحوثنا العلمية، وسيظل هو الأخطر لفترة طويلة على الأغلب، هو انعدام عملية استحضار الغائب

واستبعاد الحاضر، أو بتعبير آخر: ممارسة الكتابة ذات البعد الواحد، والتي تنطلق من زاوية واحدة منها لا يرى الباحث إلا ذاته.

إن لغة الخطاب في هذه البحوث تتوجه في معظمها، إلى القناة المحلية لا الفضائية. وإذا كان للقناة المحلية برامجها الموجهة عادة إلى السكان المحليين والمنفصلة تماماً عن البرامج الموجهة إلى الخارج، فإن هذه الحقيقة ما تزال بعيدة عن خواطر كثير من كتابنا وباحثينا، إذ لا تمييز في معظم كتاباتهم بين اللغة المحلية واللغة العالمية. وسواء وضع باحثنا كتاباً في تعليم المسلم الصلاة، ثم ألف كتاباً آخر لعرض صورة المرأة في الإسلام والدفاع عن هذه الصورة أمام العالم، فسيكون الخطاب هو نفسه في الكتابين على الأغلب، وسنجد صعوبة بالغة في التمييز بين طبيعة لغتيهما، وهذا، مرة أخرى، بخلاف المنهج النبوي الحكيم الذي يعلم كيف يكون خطابنا متوائماً مع الظروف والأحداث والأشخاص حتى لا يرتد الأمر علينا بما لا نحب:

- عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟» (رواه البخاري).

- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا بما تحمّلُه عقولهم» (رواه أبو نعيم).

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة» (رواه ابن عساكر).

وأميل إلى الظن أن عاملاً آخر هنا، إضافة إلى «النحنوية»، له أثره في توجيه لغة خطابنا ويحول دون انطلاقها إلى الفضاء الخارجي، وهو ضعف رصيدنا من الثقة بالنفس، فلا نجرؤ، بهذا القدر القليل من الثقة بأنفسنا، على مخاطبة العالم، وربما لا نجد ذلك الحافز القوي لمخاطبته ونحن لا نملك الحجج الدامغة للرد على شكوكه واتهاماته، فلقد كنا، حتى عقود قليلة مضت، نفتقر إلى الحد الأدنى من القناعة بموقفنا تجاه الحضارة الغربية الزاحفة باتجاهنا، ومن جدوى مقاومتها وقدرة هذه المقاومة على الاستمرار، وربما ما تزال هناك حتى الآن مجموعات عديدة في مجتمعنا العربي على استعداد للتنازل عن ثوابتها الحضارية وثقافتها أمام الضيف القادم، والانضواء تحت ما يسمى اليوم بالعولمة، مع التأكيد بأن مبدأ العولمة، مجردة من أي انتماء ثقافي لهذا أو لذاك مبدأ إسلامي بالأساس لأن كتاب الإسلام يقول:

- ﴿.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

ومع تقديرنا الجم لكثير من أدبائنا الكبار الذين دافعوا عن الإسلام ومبادئه ونبيه وكتابه ولغته، وأسكتوا أصواتاً كانت تحاول أن تنال من ذلك كله ما وسعها النيل، فإن الضعف في مواقف بعضهم كان يكمن في الانطلاق من هذه الزاوية الواحدة والبعد الواحد، فترتفع أصواتهم في الخطاب، وهي، كما اعترفنا خصيصة عضوية من خصائصنا نحن العرب، بمعنييها الحقيقي والمجازي، وإلا فماذا سيقول القارئ الغربي لو ترجمنا له هذا المقطع لأستاذنا الكبير، وأستاذ الجيل، مصطفى صادق الرافعي، وهو يدافع عن أعز كتاب وأصدق رسالة: القرآن الكريم، فيهاجم منتقديه، ولكن بأسلوب الخطاب العربي المحلي:

- «وإنك لن تجد سيماهم إلا في أخلاقهم فتعرفهم بهذه الأخلاق، فستنكرهم جميعاً، ولتعلمن عليهم كل سوء، ولترينهم حشو أجسامهم طيناً وحمأة، في زعم كَذب يسمى لك الطين طيباً، والحَمأة مسكاً، ولتجدن أحدهم وما في السفلة أسفل منه شهوات ونزغات، وأنه مع ذلك ليزوِّر لك ويلبس عليك، فما فيه من لون عندك يعيبه إلا هو عنده تحت لون يزينُه، ولا رذيلة تقبِّحه إلا هي في معنى فضيلة تجمِّله، فخذ منه الكذب في

فلسفة المنفعة، والتسفل في شفاعة الغريزة، والوقاحة في زعم الحرية، والخطأ في علة الرأي، والإلحاد في حجة العلم، وفساد الطبيعة في دعوى الرجوع إلى الطبيعة، وبالجملة خذ أفعالهم فسمها غير أسمائها، وانحلها غير صفاتها، واكذب بالألفاظ على المعاني، وقل: علماء ومصلحون، وأنت تعني ما شئت إلا حقيقة العلم والصلاح. أيتها الحصاة، ما يسخر منك الساخر بأكثر من أن يجلوك على الناس في علبة جوهرة. وأنت أيها القارئ فلا يغرنك منهم من يلبس العمامة يتسم بسمة الشرع، ثم يذهب أين يذهب وشعلة الجحيم العلمية تدور في رأسه تهفو من هاهنا وهنا...»(٤).

طبعاً نستطيع أن ندافع عن أديب العربية الكبير بأنه استخدم هذه اللغة العالية الصوت لأن من يهاجمهم كانوا يستخدمونها معه، ومع غيره أيضاً، وأنهم لم يكونوا يفهمون غير هذه اللغة. ولكن يجب ألا نتهرب من حقيقة أن الخطاب الذي كان يسود الشارع النقدي في تلك الفترة، وما يزال يهيمن عليه حتى الآن إلى حد كبير ، هو هذا النوع الحاد من الخطاب.

أعجزنا يا ترى ، وقد أصابتنا عقدة الخوف من المستوردات الغربية، ومنها لغة الخطاب العلمية، أن نعود أدراجنا إلى القرون الأولى من تاريخ الإسلام

فنقتبس من هدي النبوة أخلاقها، ونستعير لغة حوارها البعيدة عن الفحش واللعن:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» (رواه الترمذي).

وهل أخفقنا في أن نقتدي بالأئمة الكبار الذين تربوا على مائدة النبوة فنقول لمن يخالفنا ما كان يقوله الشافعي:

- «رأينا هذا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فمن رأى غيرما رأينا فله ما رأى ولنا ما رأينا»

وهل من أمل في أن تتحول نظرتنا إلى الأمور من السلب إلى الإيجاب، وأن نرفع عن أعيننا نظاراتنا السوداء لنرى الكأس ممتلئة إلى نصفها، وأن نتيح للعالم أن يرى وجهنا الضاحك لا العبوس، وخطابنا المقبل لا المدبر، ونفوسنا المتفائلة المستبشرة لا النفورة النائية بجانبها عن الناس:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم» (رواه مسلم) ■

الهوامش:

(١) (Jon M.Swales. Genre Analysis: English in academic and research settings. Cambridge University Press. 1996. P.2).

(٢) الآيتان ٣ و ٤ من سورة آل عمران.

(٣)(اخترنا هذه المقاطع من صفحات متقاربة جداً: ٥٥ - ٦٥ للدلالة على هيمنة هذه الخصيصة المخيفة على الكتاب بأكمله وبهذا الشكل المكثف. ولا ينبغي لنا، مع هذا، أن نغمط حق هؤلاء الكتاب الخمسة، فنجردهم مما استطاعوا أن يقدموه في أعمالهم من كشوف وآراء جديدة، وانما شاءت المصادفات أن تكون كتبهم قريبة فقبالي يدي وأنا أعد هذا البحث).

(٤) (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي: بيروت ٢٠٠٣، ص: ٩).